جلال أمين الذي علمته الحياة

obeikandl.com

obeikandl.com

بيني وبين المفكر الكبير الدكتور جلال أمين حوار دائم حتى لو لم يكن متصلا ، عرفته منذ عام ١٩٨٧ ..وكانت المناسبة إجراء حوار صحفي معه ضمن سلسلة كانت تعدها صحيفة « صوت العرب » بعنوان « سيناريوهات مستقبل مصر في التسعينيات » ،وتنبأ جلال في هذا الحوار بأن :« مصر في طريقها إلى التخلي كاملا عن دولة الدور لصالح دولة الخدمة» ، أي تترك مصر دورها التاريخي كقائد لمحيطها العربي ،وتصبح دولة تنفذ خدمات للغرب بمصالحه وتوجهاته »

ولفت جلال النظر إلى الأبراج المرتفعة والمباني الشاهقة الجديدة على كورنيش النيل ، وتلك التي تحت الإنشاء ، قائلا :« أري أن هذه المباني الشاهقة هي من لزوم الدور الجديد لمصر .. دور الخدمة » .

قال د. جلال في هذا الحوار كلاما كثيرا ، وكلما ذكرته به بقولي :« كلما مررت على كورنيش النيل ورأيت المباني الشاهقة والأبراج العالية ، مع تراجع دور مصر فعلا .. تذكرت نبؤتك يا دكتور جلال»، فيرد ضاحكا :« والله يا سعيد أنت بتفكرني بحاجات حلوة.. وطالما أنت شايف نبؤتي تحققت يبقي خلاص ».

لم يكن السيناريو الذي تحدث عنه د.جلال في حواري الأول معه ،والذي دار في فيلته بالمعادي ،هو الحدث الوحيد الهام بالنسبة لي معه ، وإنما ظروف أخري أحاطت بالحوار، أعطتني شفرة من شفرات شخصيته العظيمة ، فبعد أن أنجزت الحوار طلب مني أن أعود إليه به ليري صورته النهائية قبل نشره ، ونفذت مطلبه لكنه وبعد أن قرأ الحوار طلب تمزيقه ، قائلا :« فيه حاجات كتير تحتاج إلى تعميق »، وقام بإحضار ورق أبيض من مكتبته طالبا مني الكتابة ورائه من جديد ، وعدم اللجوء إلى الكاسيت ، وبالرغم من بساطة هذه الحكاية إلا أنها أعطتني مفتاحا مبكرا لفهمه ،حين يتحدث ،وحين يكتب ، ففي الحالتين يتأمل بعمق ، ثم يبدأ رحلة الغوص التي تمتزج فيها حكايات الواقع بخيال الكاتب وصرامة الباحث ، ثم

تأتي النتيجة في مقال أو كتاب أو رأي يؤيده البعض، ويعارضه البعض ، فيبدأ الجدل حوله .

يمتلك جلال أمين قدرة مدهشة في مزج آرائه بالحالة الإنسانية للبشر ، كما أنه يتمتع بقدرة لافتة في التقاط تصرفات سلوكيات فردية أو جماعية، تمر على مثله مرورا عابرا ، لكنه هو يلتقطها ليضعها في سياق عام ،مؤكدا لنا أن التصرف حتى لو كان فرديا خالصا إلا أنه في حقيقته انعكاسا أمينا لمشهد سياسي واجتماعي يعيش في ظله الوطن ،ولهذا تنفذ سريعا إلى الوجدان ، ومن خلال تحليله العميق هذا ،نفهم منه، ماذا حدث للشخصية المصرية؟ .

تواصل إنتاج جلال أمين الفكري ، كما واصل هو شخصيا انغماسه في الجدل حول القضايا السياسية ، وأعطي هذا الانغماس تأكيدا على أنه من نوعية المفكرين الذين لا يجلسون في أبراج عاجية ، وإنما هو دائم الانتباه إلى اختبار اجتهاداته الفكرية في الواقع مباشرة ، وأعظم ما في أطروحاته الفكرية والسياسية أنه يتخذها دائما برؤية مستقلة وليدة قناعاته حتي لو اختلف معها الآخرون ، ويبحث في جميعها عن العدل للفقراء الذين تنساهم الحكومات وتتاجر بهم الأحزاب ، ولا يعرفهم أصحاب الثروات إلا في الأوقات التي يحلو لهم أن يعرفهم الآخرون بوصفهم الذين يقدمون الحسنات والهبات .

كان جلال أمين هو مفتاحي أيضا إلى عائلة كبيرها الوالد أحمد أمين المفكر العظيم الذي أثري المكتبة العربية بمؤلفات هامة في مجال الفكر الإسلامي ،أبرزها « ضحي الإسلام ، وظهر الإسلام ، وعصر الإسلام » ، فمن خلاله ذهبت إلى بيت شقيقه حافظ بعد رحيله ،وتعرفت على شقيقه السفير السابق والكاتب المتألق حسين أحمد أمين ، وكانت البداية في سياق بحثي عن الظروف التي تؤدي إلى تواصل الاهتمام بالمجال الواحد من جيل إلى آخر في الأسرة الواحدة ، بمعني .. ما

هي الشروط التي تؤدي إلى أن يكون المفكر وريثا لوالده في مجال الفكر ، والرياضي في مجال الرياضة ، والسياسي في مجال السياسة ، والمبدع في مجال الإبداع ، وطرحت سؤالا :« هل تأتي الوراثة في ذلك لأسباب جينية ، أم لأسباب اجتماعية وبيئية ؟.

وكانت عائلة أحمد أمين هي نموذج في بحثي عن إجابة لسؤالي ، فمن بين أعضائها مفكرا بوزن جلال ، ومفكرا بوزن حسين ، ولما ذهبت إلى جلال لفت نظري إلى أن شقيقه الراحل حافظ كان له الاهتمام بالفكر والإبداع أيضا وخاصة في مجال المسرح ،وفي منزل شقيقه حسين بمصر الجديدة ، تحدث في حوار طويل عن الكثير من القضايا ، لكنني لا أنسى قوله لي :« أخي جلال والمستشار طارق البشري هما أعظم مفكرين في مصر » ، قالها أكثر من مرة وبقطع واضح لا لبس فيه .

لم يفارق ذاكرتي أبدا رأي حسين في شقيقه جلال ، ومع كل مؤلف جديد كان يهديه جلال إلى المكتبة العربية ،ثم أقتنيه منه بإهداء رقيق ، أتأكد أن شقيقه حسين لم يبالغ في رأيه ، وبالرغم من حواراتي الصحفية المتعددة معه ، و الكثير من الآراء الجانبية التي سمعتها منه ، إلا أن سيرته الذاتية التي صدرت عن دار الشروق في كتابين :« ماذا علمتني الحياة؟ » و« رحيق العمر » ، كلما نقلب في صفحاتها ، ونجد فيها حشدا من الوقائع التي يرويها جلال بجاذبية متناهية ، نتأكد أننا أمام حالة صدق خاصة ، لا يقلل منها اعتماده حسب ما يذكر في مقدمة « ماذا علمتني الحياة ؟» ، على مالا يخالف الحقيقة ، لكنها في نفس الوقت لا تحتوي على كل الحقيقة ، ويقصد بذلك أن ذكر كل الحقيقة لابد أن ينطوي على ذكر بعض الفضائح المتعلقة بنفسه أو بغيره وهو ما لم يفعله.

مهام كبيرة

في مذكرات جلال نعرف كيف أعد نفسه لمهامه الكبيرة ، مفكرا ، كاتبا ، أستاذا جامعيا ، سياسيا ، ونعرف كيف أدار كل هذه المهام الكبيرة كإنسان جعل من

الصدق والصراحة جسرا بينه وبين الناس ، فاحترموه عظيم الاحترام .

ولد جلال أمين في ٢٣ يناير عام ١٩٣٥ ، بعد معركة بين الأم والأب على تقرير مصيره ، فالأب صمم على أن تجري لأم عملية إجهاض لهذا الحمل الذي جاء ختاما لسبعة إخوة ، لكن الأم واجهته بالرفض ، واتبعت من أجل ذلك مناورات وأساليب ملتوية كهروبها من منزل أخيها في العباسية أو منزل أختها في قرية زاوية النقلي بمحافظة المنوفية ، ومرة بتخلفها عن ركوب قطار المترو بعد أن ركبه الأب ، حتى استسلمت الأم لرغبة الأب ، وذهبت إلى الطبيب الإيطالي . ومع بدء عملية الكشف عليها دفعته بكل قوتها صائحة :« روح يا شيخ ، هو أنا حبلي في الحرام» ، فتراجع الطبيب خائفا وقال بلكنة أجنبية :« يا خبيبي أنا مالي ؟، عايز تسقط ، تسقط ، عايز تخبل، تخبل » وخرجت الأم واستسلم الأب ليجيء جلال إلى الحياة .

يحكي جلال هذه القصة في سياق العلاقة المعقدة بين الأب والأم ، تعقيدا مستمدا من زمانه ومكانه ، ويتجلى في خصوصية العلاقة التي كانت بين الرجل والمرأة ، ويذكر عشرات الحكايات في علاقة الأب بالأم بصراحة واضحة ، وهي حكايات قد يبدو منها أنه يضع الاثنين على كفتي الميزان ، وأن كفة الأب ستميل بكل سهولة ، لكن المتأمل لها يقول إنها هي معادلة الحياة بكل ظروفها التي تعطي لكل من الطرفين ميزة خاصة في شيء ، ثم تتضافر الميزات لتسير المركب في بحر الحياة .

ويتساءل جلال :« لا أعرف كيف أفسر لماذا استقر في ذهن أبي منذ وقت مبكر في حياته انه من الواجب ، ومن الممكن أن يكرس حياته لعمل عظيم ؟، ويجيب :« أن التفسير الذي أميل إليه أكثر من غيره لهذا الطموح القوي عند أبي ومنذ وقت مبكر إلى القيام بعمل عظيم فيه نفع أمته ، هو حسه الأخلاقي البالغ القوة » .

يوضح جلال أن والده كان من أسرة متوسطة الحال ، لكنه كان ارستقراطي

الأخلاق والحس ، ويقول ، أن الوالد كان دائم التساؤل عن الموقف الأخلاقي الصحيح ، وكأن المسائل كلها في أمور الحياة تتحول عنده في نهاية الأمر إلى مشكلات أخلاقية.

أما الأم فيقول عنها جلال :« كانت أخف ظلا ، وألطف معشرا ، ولكنها كانت أكثر مكرا وأشد دهاء ، ولم تكن بخيلة بخلا منفرا ، ولكنها كانت بلا شك حريصة على المال ، ويؤكد أن حصوله هو وإخوته على بضعة قروش منها كان أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر .

يغوص جلال في تفاصيل العلاقة بين والديه ، وهي علاقة تبدو محسوبة إلى الدرجة التي نتخيل معها وكأنها علاقة حرب بين طرفين ، فالأب الذي كان في رأسه أفضل الأفكار عن الأسرة السعيدة ، لم يكن قادرا على التخلص من دور الزوج الديكتاتور، ولم يجد في نفسه القدرة على ملاطفة امرأته ، ولم ينادها باسمها مرة واحدة ، بل يصيح مناديا :« يا ولد» فتفهم أنها المقصودة ، وكانت تتندر أحيانا إذا أحست منه ببعض الرضا فتسأله عما إذا كان من المحتمل ترقيتها بأن يخاطبها بـ« يا بنت » ، كما تصطدم في أول أيام زواجها بانشغاله بكتبه وأوراقه وتدخل عليه مرة لتخبره بأن الغذاء جاهز فيشير بإصبعه على رأسه علامة على انشغاله بالتفكير ، وترفض أن يكون هذا هو معني الزواج قائلة لنفسها :« لا يمكن أن يكون الأمر كذلك ، فقد رأيت خالي يكلم زوجة خالي أحيانا » .

كان أقصي ما يستطيع الأب (أحمد أمين) أن يفعله نحو زوجته إ ذا شعر نحوها بمنتهي الرضا أن يناديها بأم حمادة ، مستخدما اسم التدليل لأكبر أبنائها ، ولكن هذا كان أمرا نادرا للغاية ، لا يتذكر جلال أنه سمعه من والده أكثر من مرة أو مرتين أو ثلاث ، ويذكر جلال قصة طريفة عن ظروف نادي فيها والده لأمه بـ« أم حمادة » وكان فيها مضطربا وخجولا ، وفي المقابل كانت الأم تروي هذه القصة

بشعور فيه فخر واعتزاز ، أما القصة وكما يقول جلال :« أبي كان يخطر له أحيانا في لحظة من لحظات سأمه من القراءة والكتابة ، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه ، من باب الترويح عن نفسه ، كصنع المربي مثلا ، كانت أمي في زيارة لأخيها عندما خطر لأبي مثل هذا الخاطر فأتي ببعض البحر وشرع في صنع المربي ، فوضع البلح مع بعض السكر على النار، ونسي أن يضيف الماء ، ثم خطرت له فكرة مقال جديد فغادر المطبخ واتجه إلى حجرة مكتبه ليشرع في الكتابة ونسي أمر المربي برمته . وصلت إليه بعد مدة رائحة حريق ، فإذا به يجد البيت كله وقد امتلأ بالدخان بينما كانت أمي تصعد السلم عائدة من زيارتها .استقبلها أبي في أعلي السلم وهو مضطرب ، وقد اعتلت وجهه ابتسامة عريضة وقال لها مرحبا على غير عادته : « أهلا بالست أم حمادة » ، وأصابت أمي دهشة عظيمة ، إذ تستقبل هذا الاستقبال الحافل ، وبهذا التعبير الودي غير المألوف ، فنظرت إليه نظرة ملؤها الشك قائلة : «والله إنت عامل عملة » ، وسرعان ما اكتشفت قصة المربي التي لم يكن من الممكن إخفاؤها فاتضح لها كل شيء » .

يذكر جلال قصة في حياة الأم لم تكن تمل من تكررها له ، وهي قصة حبها مع ابن خالها وتعاهدهما على الزواج ، لكن الخال الثاني الذي كانت تعيش في بيته رفض تزويجها وهي البنت اليتيمة قبل أن تتزوج بناته ، فمرض ابن الخال ، أما هي فتركت البيت وقصدت محمد عفيفي باشا أحد أقاربها ، وظلت في بيته محاطة بالحب والرعاية حتى تزوجت من أحمد أمين .

استمع جلال كثيرا من أمه إلى روايتها لقصة حبها لابن خاها ، وظل يتعامل معها كقصة مسلية لكنه في مرحلة لكبر اكتشف أن الأمر مأساويا بكل معني الكلمة ، ويستدل على ذلك بما حدث بعد وفاة والده بعامين ، وأثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، حيث قرأت الأم في صفحة الوفيات بالأهرام ما

يفيد بأن ابن « المعشوق » القديم توفي ضمن ضحايا العدوان الثلاثي ، واسترعي انتباه جلال الأثر القوي لهذا الخبر على الأم أكثر من أي أخبار أخري ، وعبرت عن ضرورة ذهابها لأهل الشاب المتوفي للتعزية .

ولما عادت من العزاء بدا عليها التأثر والحزن الشديدان ، يتذكر جلال أنه بعد شهور قليلة جاء الرجل ليشكر الأم على قيامها بالعزاء ، وجلسا معا يتبادلان الحديث في شرفة البيت ، وكان الرجل مهيب الطلعة في نحو الخامسة والستين من العمر أو أكثر ، فارع الطول وأنيقا أناقة واضحة ، ويقول جلال أنه لم يعلق أهمية وقتها على هذه الزيارة لكنه عندما تذكرها بعد وفاة أمه بسنوات بدت له وكأنها نهاية مؤثرة لقصة حب ظل مكتوما لعشرات السنين .

ويضيف جلال إنه كان يدرس في إنجلترا عندما توفيت أمه ، لكن أخته الكبرى قالت له أن أمها قبل وفاتها بأسابيع قليلة جاءها خبر وفاة ابن خالها فلم تعلق عليه ، وإن كان قد بدا عليها حزن عميق لعدة أيام قبل أن تمرض المرض الذي أودي بحياتها .

بين قصص الأب والأم يذكر جلال أمين كيف كانت تربية الأبناء ، وكيف كان الأب يحسبها في سياق الموقف الأخلاقي والتربوي النبيل الآتية من نبل أخلاقه ومواقفه ، لكن على الرغم من ذلك خرج كل منهم بحياته المختلفة عن 'الآخر .

حسين وعلي مختار ورفعت المحجوب

من الأخوة إلى الأصدقاء إلى الأساتذة ، إلى كل هؤلاء الذين قابلهم جلال أمين في حياته وأثروا فيه أولم يؤثروا نسبح في المذكرات سياحة ممتعة ، عن الأشقاء السبعة نقرأ عنهم منذ صغرهم وحتى كبرهم بمفهوم يقوله جلال :« نشأنا في نفس البيت ، وذهبنا إلى نفس النوع من المدارس ، وقضي كل منا فيما عدا احدي شقيقاتي وأخي أحمد عدة سنوات في أوربا ، فإذا بكل منا عالم مختلف تماما عن بقية الأخوة » .

ويضيف :« قد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة بيننا من مقارنة شكل العينين ، أو حجم الأنف ، أما الشخصية والميول فلا يشبه أحدنا الآخر فيها قيد أنملة » ويتحدث جلال عن أشقائه برؤية واعية لمناخ النشأة والتكوين ، ومن بين كل الإخوة يتوقف عند أخيه حسين ، والذي يكبر جلال بعامين ونصف العام .

يقول جلال أن حسين هو أكبر أخوته أثرا فيه ، ويعيد سبب ذلك إلى أن حسين كان لديه منذ بدايته ميل بالغ القوة للاعتقاد بأنه شخص فريد من نوعه ، لم يأت أحد مثله من قبل ، ولن يأتي أحد مثله في المستقبل ، وكانت وسيلته لإثبات أنه أعظم الناس هي تحصيل أكبر قدر من الثقافة ، ويؤكد جلال أن حسين نجح بالفعل في تحصيل قدر من الثقافة يتجاوز بمسافة تاسعة ما حصله أي أخ أو أخت ، بل ومعظم المثقفين المصريين ، وأن ثقافته الواسعة اقترنت بموهبة حقيقية لديه في الكتابة والتعبير عن النفس بسلاسة جاذبية نادرين ، جعلا والده يعلق عليه آمالا في أن يخلفه ككاتب وأديب أكثر مما علقه على أي ولد آخر من أولاده ، لكن الأب كان يعتريه الخوف من أن يجابه حسين في حياته الكثير من الصعاب من جراء اعتداده المفرط بنفسه .

ويتذكر جلال تصرفا مدهشا لحسين وهو طفل، حدث في عيادة طبيب الأنف والأذن والحنجرة ، حيث اصطحب الوالد أبناءه الثلاثة أحمد وحسين وجلال لاستئصال اللوز ، فدخل أحمد في البداية دون اعتراض وأجريت الجراحة ، ولما جاء دور حسين رفض رفضا باتا أن تجري له العملية ، غير متصور أن يجري عليه ما يجري على الآخرين ، وأخذ يجري من حجرة إلى أخري من حجرات العيادة ووراءه الطبيب والممرض يحاولان الإمساك به ،وهو يصيح بصوت عالي :« أنا قلت مش حاعمل عملية اللوز ،والله العظيم ما أنا عملها ، شوف ، والله العظيم يعني إيه » .

ظل أثر حسين على جلال متشعبا.وفي كتابه « رحيق العمر » كتب له جلال

إهداء معبرا قال فيه :« إلى أخي العزيز حسين أحمد أمين .. عرفانا بجمائله التي تظهر في صفحة بعد أخري من هذا الكتاب ، واستكمالا لمراسلات بيننا استمرت أكثر من نصف قرن ».

عرف جلال عن طريق حسين قراءة الأدب الإنجليزي والأدب الروسي وأسماء بارزة في الفكر والأدب الفرنسي مثل سارتر وأندريه جيد وألبير كامي ، ورغم كل هذا التأثير من حسين إلا أن جلال لم ير الحياة ومشاكل المجتمع وفلسفة الأشياء بعين أخيه ، فكلاهما شق طريقه الفكري برؤية مختلفة، ومما يوضح ذلك ، المراسلات المتبادلة بين الاثنين والتي يأتي بها كتاب « رحيق العمر » ، ويقدمها جلال بقوله :« كان أخي حسين هو الذي عرفني بأهمية المسرح الإنجليزي وألح على في أن أتابعه (أثناء فترة البعثة من عام ١٩٥٨ _ ١٩٦٤) للحصول على الدكتوراه ، ولكن بمجرد أن رأيت مسرحية أو اثنتين في لندن ، أصبح الذهاب لرؤية مسرحية جديدة مهمة ، أو إخراج مهمة قديمة ، شيئا له أهمية الاشتغال على رسالة الدكتوراه ، وعندما أستعيد ما فعلته في لندن خلال سنوات البعثة لا أتردد في اعتبار أن ما رأيته من مسرحيات جديدة على المسرح الإنجليزي كان له أثر في تكويني العقلي والوجداني لا يقل عن أي شيء آخر قمت به في هذه الفترة ».

يضيف جلال :« كنت إذا اشتعل حماسي لإحدى المسرحيات كتبت إلى حسين على الفور لأعبر عن هذا الحماس ، فيرد على حسين موافقا أو معارضا ، ومضيفا معاني جديدة لما فهمته ، أو ينبهني إلى بعض الوقائع المتصلة بتاريخ كاتب المسرحية ، ولم يكن حسين يتعاطف دائما مع موقفي ، بل كان أحيانا يبدي قسوة مدهشة في استسخاف رأيي في بعض المسرحيات . من ذلك موقفه من حماسي الشديد لمسرحية يونسكو « الكراسي » إذ كتبت له مادحا لها بشدة ، فكتب يهاجمني بشدة أيضا .

عشرات الأسماء مروا في حياة جلال أمين ، منهم أساتذته ، ومنهم زملاء

الدراسة منذ الطفولة وحتى الجامعة ثم في الدراسات العليا ، ومنهم الأصدقاء الذين يعدون الأهم في تصنيف من يعرفهم جلال ، وهؤلاء موزعون على مجالات شتي في العمل والحياة ، ويري من خلال تجاربه مع هؤلاء ومشاهداته لهم :« أن الحس الخلقي للمرء يولد مع الطفل بدرجة معينة من القوة » ، ويدلل على ذلك بأن كل أصدقائه دخلوا الجامعة وحصل معظمهم على وظائف محترمة ، وبعضهم على الدكتوراه ، لكن ظل كل منهم على حاله الذي بدأ عليه عقليا وخلقيا ، وتأكدت قناعة جلال بعد بذلك بعد أن التقي بانزملاء القدامي بعد نحو ٦٠ عاما في عشاء نظمه أحدهم ، فوجد أن كلًا منهم كان كما هو عقليا وخلقيا ، فهذا المهندس محمود كشك « ملح الأرض » الذي يعطي في صمت ويرحل في صمت ، حمي الإذاعة المصرية من العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، وأنشأ التليفزيون الأسود ، ثم الملون ، والمحطة الفضائية نفسها ، وعلي النقيض من نموذج المهندس محمود كشك ، يذكر جلال نموذج الطبيب الوسيم الذي كان يذكر المرضى الفقراء بأسي وحزن ، وأخيرا ترك البلد وهاجر ليعيش حياة مريحة ، وهناك الزميل البخيل الذي عشق المال وسافر لأمريكا لدراسة الطب ثم العمل ، وبعد أن بلغ الستين عاد بثروته ، وحين مات وجد أخوه أنه لا حاجة لنعيه في الصحف لأن لا أحد يعرفه في مصر وأمريكا ، وبفيض من الحب والتأثر يتحدث جلال أمين عن صديقه الفذ على مختار ، فعن طريقه عرف جلال السياسة ، ويصفه جلال بأنه كان نموذجا في كفاءة إدارة شخصيته ومواهبه الفذة.

يمكن القول : إن سيرة حياة جلال أمين هي في نفس الوقت سيرة لأشخاص آخرين ، ورغم أن حديثه عن هؤلاء الأشخص يعبر بسرعة ، إلا أننا نفهم من هذا الحديث سمات وخصال هؤلاء الأشخاص ، هو يعطينا عنهم خطوطا عريضة تقودنا إلى فهم عميق لمجمل تصرفاتهم ، ومن هذه الأسماء ، أستاذه الدكتور سعيد

النجار المفكر الليبرالي الراحل ، فرغم الاختلاف الفكري بينهما والذي أدي إلى التباعد في العلاقة لسنوات ، إلا أن الشهور الأخيرة من حياة النجار شهدت تقاربا بينهما ،وتميز النجار بأنه لم يتملق السلطة قط ، ولا دافع عن فكرة غير مقتنع بها ، وبنفس الدرجة من الاحترام والمحبة يتحدث جلال عن شخصيات أخري مثل ، الدكتور زكي الشافعي ، وإسماعيل غانم ، وحافظ غانم ، ويتحدث عن قصة أستاذين صديقين قاما بالتدريس له ،وارتبطا بثورة يوليو ، وجمعهما الطموح السياسي ، وهما الدكتور لبيب شقير، والدكتور رفعت المحجوب ، اختار جمال عبد الناصر، لبيب شقير وزيرا للاقتصاد ، وكان أصغر وزير يتولى شؤون الاقتصاد أو المالية في مصر، ثم أصبح رئيسا لمجلس الأمة ، قبل أن يتم اعتقاله من الرئيس السادات في قضية الصراع بينه وبين العديد من رجال حكم عد الناصر ، وهي القضية التي أطلق عيها السادات « مراكز القوي » ، وكانت في ١٥ مايو ١٩٧١ ، يتحدث جلال عن شقير بحب ، فهو ذكي ونشيط محاضر جذاب ،واسع الثقافة ، يتحول الاقتصاد على يديه إلى علم وثيق الصلة بالحياة ، ولما خرج من المعتقل ، وجد نفسه بلا عمل بعد أن كان في قمة السلطة السياسية، وعمل لفترة قصيرة في المحاماة ، ثم سافر إلى أبوظبي للعمل مستشارا لإحدى المؤسسات المالية ، وبالرغم من هذه الوظيفة لم تتناسب مع قدراته ، إلا أنها أبعدته عن أهواء السياسة المصرية ، وكان يعود كل عام ليقضي أجازته في مصر ، فيجلس على شاطئ البحر في المنتزه بالإسكندرية ليقرأ الروايات ، وفي إحدى هذه الأجازات ، وبينما كان يستعد للسفر إلى مصر ليقضي أجازته أصابته أزمة قلبية ومات على الفور ولم تطل الصحف المصرية في نعيه ، ولا كتب عنه أحد مقالة .

أما الدكتور رفعت المحجوب الذي تولي رئاسة مجلس الشعب (١٩٨٦ - ١٩٩٠)، فيراه جلال أمين ، شخصا ثقيل الظل بطيء الحركة ، يتظاهر بالعمق

وسعة الثقافة دون أن يكون هناك أي دليل على ذلك ، لم يمنعه شيئا من الاستمرار فيما كان فيه ، هزيمة كان أم انتصارا ، رأسمالية أم اشتراكية ، ومنذ أن كان مدرسا في كلية الحقوق ، لم تكن له آراء ثابتة في أي شيء ولا معتقدات قوية ، وتم اغتياله في عام ١٩٩٠ ، ويري جلال أن السبب الحقيقي لاغتياله يعود إلى قلة حظه من الحنكة السياسية ، ومن الفهم لطبيعة المرحلة التي كان يقدم نفسه لخدمتها ، ومنعته إغراءات بسيطة للغاية ، كالحصول متلا على فيلا فخمة في الصف الأول من الفيلات المقامة على شاطئ مارينا ، من أن يري الأمور على حقيقتها، ويقول جلال أن المحجوب عومل في حياته المعاملة التي يستحقها ، أخذ من الحياة ما كان يطمح فيه بالضبط ، وانتهت حياته نهاية فيها بعض سمات المأساة وبعض سمات المهزلة .

يطرح جلال أمين سؤال حول السبب الحقيقي لاهتمامه بالسياسة ومتي بدأ الاهتمام بها ، ويجيب بأنه يتذكر كيف كان في سن مبكرة أكثر اهتماما بحال الفقراء من بقية إخوته ، وأكثر استعدادا للإنفاق عليهم من ماله من بقية أفراد أسرته باستثناء أبيه ، وأنه كان يدافع عن خادم أو خادمة عوملا بقسوة أو ظن أنهما عوملا بقسوة أكثر مما كان يفعل أي أخ أو أخت ، ويقول :« قد يكون مصدر اهتمامي بالسياسة هو هذا الاستعداد للتعاطف مع المظلوم أكثر من مجرد كراهيتي لتعرضي أنا شخصيا للظلم مع بقية إخوتي ، ولكن من الممكن جدا أيضا أن يكون هذا التعاطف مع المظلومين سببه شعوري المستمر بأني واحد منهم »..

ويحكي جلال أمين عن تجربة له مع حزب البعث عبر أصدقاء من الطلاب العرب أثناء دراسته الجامعية تميزوا بالجدية والاهتمام بالسياسة والقضايا العامة بدرجة أكبر من اهتمام المصريين ،وانضم إليه عام ١٩٥٤ ، بعد انضمام صديقه على مختار ، كما انضم عدد آخر من المصريين يقترب عددهم من المائتين ، ويذكر أن قيادة الحزب في سوريا اختارته مسئولا عن الحزب في مصر بعد تخرجه من كلية الحقوق ،

وتعددت اللقاءات في القاهرة مع ميشيل عفلق مؤسس الحزب واستمر ذلك حتى عام ١٩٥٧، ويؤكد أنه يشعر ببعض الفخر لما بذله من نشاط في الحزب، وعلي الأخص قيامه بإعداد بعض أحاديث ميشيل عفلق وطباعتها على نفقته الخاصة من مرتبه ،الذي كان يتقاضاه من عمله في مجلس الدولة قبل أن يسافر للحصول على الدكتوراه.

استمر جلال في « البعث » ثلاث سنوات ،وكان ذلك قبل أن يصعد الحزب إلى الحكم في سوريا والعراق ، وسارت هذه الفترة في اتجاهين ، الأول مع روحانية وميتافيزيقية الفكرة البعثية وقائدها عفلق ، والثاني مع صلابة وقوة الفكرة الماركسية التي بدأ في مطالعتها ، وانتهي مسار الاتجاهين بعد حوارات متعددة مع ميشيل عفلق إلى ترك «البعث »نهائيا واستقالته منه عام ١٩٥٨ ، ويعتبر جلال هذه التجربة « صبيانية أكثر منها جادة في العمل السياسي »، وسار جلال باتجاه الماركسية كفكرة أكثر إقناعا له ، لكنه تركها هي الأخرى بعد سنوات من بعثته إلى إنجلترا للدراسات العليا عام ١٩٥٨ ، والمفارقة أن كل هذا كان يتم في وقت صعود زعامة جمال عبد الناصر ، وهي الزعامة التي التبست مشاعر جلال نحوها مابين الحب والكره .

ويحدد جلال فترة تعاطفه مع ثورة يوليو بتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ، وبلغت أوجها مع تأميمات ١٩٦١ (قرارات يوليو الاشتراكية) ثم بدأ أول شرخ فيها عام ١٩٦٣ ، حين هاجم عبد الناصر ميشيل عفلق ، ويحشد جلال عشرات الوقائع التي ساهمت في عدم استقامة مشاعره على طول الخط مع الثورة ، منها ما هو أمني ،و ما هو سياسي ، فعلي الصعيد الأمني ظل انضمامه إلى البعث تهمة تطارده ، كما حدث في محاولة عرقلة سفره إلى إنجلترا لحضور مؤتمر وبصحبته زوجته الإنجليزية عام ١٩٦٦ ، ولما أخذه خالد محيي الدين (عضو مجلس قيادة ثورة يوليو

ومؤسس حزب التجمع التقدمي المعارض) إلى شعراوي جمعة وزير الداخلية للاستفسار عن الأمر ، ذكر شعراوي أن جلال « بعثي » وأنه قال ما يسيء إلى النظام في إحدى محاضراته في كلية الاقتصاد ، ورغم أن شعراوي لم يعط وعدا في هذا اللقاء مما أفقد جلال الأمل ، فإنه فوجئ قبل موعد سفره بقليل بالسماح له دون أن يعرف ما الذي أدي إلى ذلك .

يحكي جلال واقعة نفهم منها عدم استقامة مشاعره نحو ثورة يوليو ، يقول فيها ، أن أستاذا زميلا له في كلية الحقوق جامعة عين شمس أبلغه عام ١٩٦٥ أن شخصا مهما يريد أن يقابله ، وهذا الشخص كان حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم الأسبق وأول مسؤول لمنظمة الشباب وهي التنظيم الشبابي الذي أسسه عبد الناصر في الستينيات، ودار في المقابلة حديثا طويلا عن الرأسمالية والاشتراكية ، ويعتقد جلال أن الحوار ترك أثرا طيبا لدي حسين بدليل إصراره على توصيله بسيارته إلى منزله في المعادي ، لكن ما لم يفهمه جلال حتي الآن أن حسين لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال رحلة التوصيل من جاردن سيتي إلى المعادي ، كما لم يبد له أي سبب لعدم إسناد ه إليه أي مسئولية في المنظمة ، لكن زميله أستاذ الحقوق ووسيط اللقاء كشف له المستور فيما بعد حين أبلغه أن المسئول الكبير (حسين كامل بهاء الدين) قال له أن جلال لا يصلح للعمل معهم لأن له تاريخا وهم يريدون أشخاصا بلا تاريخ.

على أثر ذلك تلقي جلال خبر وفاة جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ بهدوء شديد ، ومشاعر فيها من دهشة المفاجأة أكثر ما فيها من حزن ، وظل على هذا الوضع حتى منتصف السبعينيات ، عندما رأي حجم تنازلات أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة ، فبدت إنجازات عبد الناصر إيجابية للغاية ، ويتحدث جلال عن مشاعره بوضوح نحو السادات :« كان يتكلم عن نفسه كلاما

يثير النقد الشديد لكثرة ما يحتويه من فخر لا مبرر له بنفسه وتاريخه ، فإذا سئل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ، ذكر كتاب أبي « فيض الخاطر » ، ويذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه « خواطر » ، ولكي يدلل على سعة إطلاعه يقول أنه قرأ المراجع التي ذكرها أبي في نهاية الكتاب ، والكتاب بحكم طبيعته لا بذكر اسم أي مرجع على الإطلاق».

أدت شخصية السادات وما انتهجته من سياسة بجلال إلى أن يكون على استعداد لنسيان كل ما ارتكبه عبد الناصر من أخطاء ، وفي نفس الوقت جعلته « مبتهجا » بمقتل أنور السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ ، ويري أن هذا « ليس عجيبا » ويقول : فضلا عن الارتياح الذي بعثه في نفسي اختفاء هذه الشخصية التي لم تكن تثير لدي إلا مشاعر الغضب والنفور ، بدا لي هذا الذي حدث للسادات وكأنه عقاب لائق لما ارتكبه في حق مصر والعرب من أخطاءه، وعن عهد مبارك يقول جلال :« نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت في عهد مبارك ، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو في أسلوب التطبيق »، ويضيف :« كان السادات يطبقها بجرأة قد يحسده البعض عليها ، ويعبر عنها بطلاقة لسان ، وكثيرا ما يطبقها بصفاقة ، أما في عهد مبارك فكانت نفس السياسات تطبق دون ضجة ودون تهييج للناس » .

يستعرض جلال أمين حياته بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، فيجدها مليئة بالأمثلة على خيبات الأمل ، وهكذا وجد حياة كل من عرفهم عن قرب حتى من كان أكثرهم نجاحا ، ومن الأب إلى الأم إلى الأحفاد ، يطرح جلال خيبات الأمل متسائلا : « ما السر في هذا الحزن الشديد الذي كان يخيم على أبي في سنواته الأخيرة ، وكأنه لم يعد هناك شيء قادر على إبهاجه ، وعن الأم يقول أنها وبعد أن أصبح لها أملاك ، وقدر أكبر من الحرية في اتخاذ القرارات ، اشترت لوحة مكتوب عليها الآية القرآنية : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾، وعلقتها فوق سريرها ، وكانت كثيرا ما تكررها، وكان هذا التكرار ينطوي على إشارة خفية إلى أبيه ، فكأن الله لم ينصرها إلا عليه ، أوكأن العلاقة

بينهما كان لابد أن تنتهي بغالب ومغلوب ، مما يثير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية هي دائما علاقة بين شخصين متحابين ، أم بين متصارعين؟ .

أما عن نفسه فيقول :« عندما تقدمت في السن فقدت الثقة في أشياء كثيرة كنت أعلق عليها الآمال كمصدر من مصادر السرور ، ثم تبينت أنني بالغت في قدرتها على تحقيق ما كنت أتوقعه».

يرصد جلال وبشفافية مؤثرة وحزينة الفرق بين جيلين ، فيما يتعلق بخيبات الأمل التي تظهر في فشل حالات الزواج ، ففي جيله وهو تقريبا نفس جيل إخوته انتهت زيجتان بالطلاق ، ويؤكد كم كانت هناك جهود تبذل من أجل عدم الإقدام على الطلاق ، ويذكر في أسي ، أنه مثلا لم يري ابنة شقيقه محمد من مطلقته على مدي ٥٠ عاما سوي أربع أو خمس مرات ، و لأكثر قسوة أنه لم ير ابنة شقيقه حافظ من مطلقته منذ أن كان عمرها أسبوعين ، ويقول في أسي :« لا أعرف وقد بلغت الخمسين من عمرها في أي بلد تعيش » .

أما الأبناء وهم الجيل التالي للآباء ، فيقول جلال : إنه من بين عشرين ولدا وبنتا للثمانية أشقاء تزوج منهم ثماني عشرة انتهت ثماني زيجات بالطلاق ، وكلهم مازالوا في مقتبل العمر ، ويقول جلال أنه في آخر حفلة من حفلات الكريسماس التي اعتاد أن يقيمها للعائلة نظر إلى جيل الأولاد والبنات، وقد انتشرت بينهم حالات الطلاق ، وأعمار معظمهم تتراوح بين الأربعين والخمسين ، فوجدهم أكثر ميلا للحزن والاكتئاب مما كان عليه الآباء والأمهات في مثل سنهم ، وأقل تفاؤلا بالحياة ، ويري أن الطلاق لم يكن هو السبب الوحيد أو الأساسي لكل هذا الحزن ، فالميل للحزن والاكتئاب في المتزوج والمطلق موجود على السواء ، ويستخلص أن هذا لا يرجع إلى سبب فردي يتعلق بهذا الشخص أو ذاك ، أو بهذه الأسرة دون غيرها ، بل يتعلق بما حدث لمصر بوجه عام ، وربما يتعلق أيضا بما حدث في العالم كله .